

## 13189 - مراحل تطور الفقه الإسلامي

### السؤال

كيف تطور علم الفقه؟

### ملخص الإجابة

كان المسلمون يتلقون الأحكام الشرعية في حياة النبي صلى الله عليه وسلم منه مباشرة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يبعث من أصحابه من يعلم المسلمين الجدد أحكام عباداتهم ويفتيهم، ثم إن الصحابة رضي الله عنهم تفرقوا في الأماكن معلمين ومجاهدين بعد أن اتسعت رقعة البلاد الإسلامية، وكان كل منهم يفتني بما يبلغه من القرآن أو السنة، ثم عن طريق هؤلاء انتشر العلم في الأفاق، ثم دُوّنت الأحاديث وكثير طلابها المشتغلون بحفظها وكتابتها وانتشر العلم في الأرض، فكان من حكمة الله تعالى أن يُصْبِطَ الدِّينَ ويُحْفَظَ بأئمة مجمع على إمامتهم ودرايتهم وبلوغهم الغاية القصوى في مرتبة العلم بالأحكام والفتوى، وأظهر الله ذكرهم، ونشر في العالمين فضلهم، وانثال عليهم الطلاب متعلمين متفهمين ودونت آراؤهم وكانت المذاهب الإسلامية السنوية.

### الإجابة المفصلة

كان المسلمون يتلقون الأحكام الشرعية في حياة النبي صلى الله عليه وسلم منه مباشرة، وكان القرآن ينزل مرشداً وموجاً وفتياً كما قال تعالى: **﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ...﴾**، وموضحاً لما أشكل على النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة، كما في قصة المرأة التي استفتت النبي صلى الله عليه وسلم في ظهار زوجها لها فنزل بسبب ذلك صدر سورة المجادلة وهكذا.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يبعث من أصحابه من يعلم المسلمين الجدد أحكام عباداتهم ويفتيهم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يفسح لهم المجال للاجتهداد في فهم النصوص الشرعية؛ فربما أقرهم وربما صوّبهم. وكان يفتني في عهد النبي صلى الله عليه وسلم عدد من الصحابة ذكر بعض أهل العلم أنهم 14 نفساً، والحق أنهم أكثر من ذلك. فكان النبي صلى الله عليه السلام أمام الناس ومعلمهم، وكان اللسان العربي إذ ذاك مستقيماً فلم يكن في ذلك العهد المبارك اختلافات متباعدة، وبالتالي كان موت النبي صلى الله عليه وسلم يُعَدُّ خسارةً كبيرةً للأمة بفقدانها لقائدها وموجتها والقدوة الكاملة لها.

فعن أنس بن مالك قال: قال أبو بكر رضي الله عنه بعده وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر انطلق بنا إلى أم أيمن يؤزورها كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤزورها فلما انتهينا إليها بكث فقل لها ما ينكيك ما عند الله خير لرسوله صلى الله عليه وسلم فقالت ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله صلى الله عليه وسلم ولكن أبكي أن الوحى قد انقطع من السماء فهيجثهما على البكاء يجعلان ينكيان معها. ” رواه مسلم (2454). لكنه صلى الله عليه وسلم لم يتم إلا وقد اكتمل الدين.

ومن خصائص هذا الدين - الذي اكتمل بنيانه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم - أنه يحوي الخصائص التي تؤهله للبقاء والاستمرار مدى الدهر.

وبالتالي فقد بقي الدين والفقه بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وإلى اليوم، فاقتدى الناس بعد وفاته صلى الله عليه وسلم بهديه وهدي الخلفاء الراشدين من بعده، وكان أبو بكر -رضي الله عنه- يقضي بينهم ويفتيهم بما وجده في القرآن والحديث، "فإن أعياده خرج فسأل المسلمين فقال: أتاني كذا وكذا فهل علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى في ذلك بقضاء؟ فربما اجتمع إليه النفر كلهم يذكر من رسول الله فيه قضاء. فيقول أبو بكر: الحمد لله الذي جعل فيينا من يحفظ على نبينا. فإن أعياده أن يجد فيه سنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع رؤوس الناس وخيارهم فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به."

وهكذا فعل عمر رضي الله عنه من بعده.

ثم إن الصحابة رضي الله عنهم تفرقوا في الأمصار معلمين ومجاهدين بعد أن اتسعت رقعة البلاد الإسلامية، وكان كل منهم يفتني بما بلغه من القرآن أو السنة أو بعملٍ رأى أبا بكر أو عمر يفعلانه أو بما أداه إليه اجتهاده. والمفتون من الصحابة أكثر من المائة، المكثرون منهم -كما يقول ابن القيم- سبعة، وهم: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبدالله بن مسعود، وعائشة أم المؤمنين، وزيد بن ثابت، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمر رضي الله عنهم جميعا.

وكان عمر رضي الله عنه، وابنه، وزيد بن ثابت رضي الله عنهم بالمدينة، وتخرج بهم عدة تلاميذ من أمثال: سالم بن عبد الله بن عمر، ونافع وغيرهما وانتهى علمهم إلى الفقهاء السبعة ثم إلى الإمام مالك بن أنس الأصبهني.

وكان ابن مسعود ثم علي رضي الله عنهم بالكوفة وقد استفاد منهما عدة من التابعين، أمثال: علقة والأسود ومسروق وشريح القاضي وصلة بن زفر وأمم غيرهم حتى انتهى ذلك إلى الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت.

وقد انتشر الفقه والعلم في الأمة عن أصحاب ابن مسعود، وأصحاب زيد بن ثابت، وأصحاب عبد الله بن عمر، وأصحاب عبد الله بن عباس. وكان ذلك في الكوفة والمدينة ومكة على التوالي. وكان هؤلاء التابعون يُسْتَفْتَنُونَ وأكابر الصحابة حاضرون يُجَوَّزُونَ لهم ذلك.

فمثلاً كان ابن عمر يقول عن سعيد ابن المسيب: إنه أحد المفتين أو المقتدى بهم.

وقال فيه: لو رأاه النبي صلى الله عليه وسلم لسُرِّه.

ثم عن طريق هؤلاء انتشر العلم في الآفاق، ثم دُوِّنَت الأحاديث وكثير طلابها المشتغلون بحفظها وكتابتها وانتشر العلم في الأرض وكان الغالب على الناس الدين والورع، وكان هذا يمنع من أن يتكلم أحدهم بغير علم أو أن ينصب نفسه لذلك وهو ليس له بأهل، ثم كثر الخلاف ودخل في العلم من لو أمسك عنه لكان خيراً له فكان من حكمة الله تعالى أن يُضَيِّنَ الدِّينَ وَيُحْفَظَ بائِتَمَهُمْ ودرايتهم وبلوغهم الغاية القصوى في مرتبة العلم بالأحكام والفتوى، وأظهر الله ذكرهم، ونشر في العالمين فضلهم، وانثال عليهم

الطلاب متعلمين متفهمين ودونت آراؤهم وكانت المذاهب الإسلامية السنوية المتتبعة للحق من الكتاب والسنة والنابذة للابتداع في الدين، بحسب ما نقله التلاميذ من الأئمة الكبار، فصارت مسائل وأحوال كل إمام مذهبًا متبعا.

والمشهور من هذه المذاهباليوم إلا أربعة مذاهب منتشرة وهي: المذهب الحنفي، والمذهب المالكي، والمذهب الشافعي، والمذهب الحنبلية. وهي مذاهب يتفق أصحابها في أكثر الأمور وأهمها من الدين، والخلافات حصلت في فهمهم وما وصل إليهم من الأدلة في بعض فرعيات المسائل وكلهم على خير رحمهم الله تعالى. تم تطور كل مذهب منها بما يطول ذكره حتى وصل الأمر إلى ما الناس عليه اليوم من وجود كتب لكل مذهب يحوي مسائله وطرائق الاستنباط والاستدلال، ووُجِد في الأئمة بِحَمْدِ اللَّهِ مجتهدون يستخرجون الأحكام في النوازل والمسائل العصرية والمستجدة بما آتاهُمُ اللَّهُ مِنَ الْفَقْهِ وَالْفَهْمِ مستعملين الاجتهاد والقياس وقواعد المصالح الشرعية وكلام العلماء السابقين وأصول الفقه الإسلامي.

فبقي الفقه غنياً بِحَمْدِ اللَّهِ، مستوعباً لجميع مسائل الحياة التي يحتاجها المسلمون.

ولا يمكن أن يخلو عصر من العصور من قائم لله بالحجج يعرف الحق ويستتبه، وبعموم هؤلاء لا يمكن أن تجتمع الأمة على ضلاله. فنسأل الله أن يفقهنا في دينه ويرزقنا العلم والعمل الصالح. والله تعالى أعلم.

المراجع:

1. كتاب الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي
2. تاريخ الفقه الإسلامي لعمر بن سليمان الأشقر.

ولمزيد الفائدة، ينظر الجواب رقم (158052) (22311) (282538) (177778) (230477).

والله أعلم.